فريد : أديبا إسلاميا

جمالية المعمار.... (تتمة)

واحدة! فبالله عليكم أي لغة هذه في العالم يكفي لفهمها والتواصل معها - إفرادا وتركيبا- ساعات معدودات، وفي بعض الأحيان لحظات؟ ولو اتبعنا مثل هذا المنطق المغرض المهزوز؛ لقلنا إن اللهجات العربية المغربية، من فاسية، وجبلية، وفيلالية، ورباطية، ودكالية هي لغات مختلفات! ألا أتعس بها من سخافة، تجترها النفسية المهزومة، أمام المد (العولمي) الغربي، على حساب الذات العربية، وقوميتها اللغوية!

(موضة) سخيفة أساسها السيرة الذاتية للفكر الغربي -واقرأ فلسفتهم إن شئت!- فتلك أمة يلعن آخرها أولها إلى يوم القيامة!

أما أنا فهنا أصنف الدعوة الأيديولوجية لقصيدة النثر، وفي هذا السياق يصطف عندي (الحداثيون والحداثويون) على السواء!

وليس معنى ذلك كله أنني أكفر بها مطلقا، فقد سبق رأيي أنه ينبغي لها -بعد تجريدها من بعدها الإيديولوجي- أن تجيب على التحدي الإيقاعي الذي هو من أهم أركان الإبداع الشعري، الذي لا يقوم في الواقع بدونه! وتجريدها من بعدها الأيديولوجي معناه تجريدها من هدفها (الاستئصالي) الرامي إلى نسخ الأنماط الشعرية السابقة، وإحداث قطيعة شاملة مع الذات! ولو صدقت النيات لدى أصحابها لكان القول بالتساكن والتعايش والتواصل -لا كما هو لدى الجبناء المهرولين إلى (سلام الشجعان)- هو الأليق بالفن عموما، والإبداع الشعري بشكل خاص!

إن ميزة الشعر العمودي بالنسبة لمن هم يحسنونه -وشاعرتنا منهم- أنه من الناحية الإيقاعية يقوم على النغم الخارجي، وهذا يستدعي لدى الفحول كل أشكال الإيقاعات الأخرى داخلية وذهنية، وما كل ما يحبل به الأداء اللغوي من أنغام؟ ذلك أن التلقائية في الإبداع والرسوخ فيه يرتقي إلى مقام أعلى من مجرد (كلام موزون مقفى)! إنه ينجذب إلى فضاء نفسي راقص تساعده في ذلك أدواته العروضية، لكن بصورة لا شعورية حتى يجد المبدع نفسه يغني صورا ذات إشارات إيقاعية ليست في الحقيقة وليدة العروض والقافية، وإن كا نت قد توسلت بهما إليها! وهذا معنى قولي : إن الإيقاع الخارجي يستدعي الإيقاع الذهني ويؤدي إليه، بمعنى أن الإيقاع يلد الإيقاع! وتمتاز القصيدة التفعيلية وهي سليلة الأولى بإمكانيات أكثر لإنتاج الإيقاع الذهني؛ نظرا لتعدد إمكاناتها الصوتية من الناحية الخارجية، ولما لها من قدرة على التشكل والتموج حسب الدفقات الشعرية لدى المبدع والمتلقي على السواء، وذلك أقدر على استدعاء الإيقاع الذهني الكامن في النفس لديهما معا! فهل لقصيدة النثر أن تستجيب لمثل هذا؟ إن ذلك لهو عين التحدي! ولو يحصل؛ إذن لكان فتحا في تاريخ الأدب العربي، ولا يكفر به حينئذ إلا جاهل أو متحجر!

التواصل هو الشعار الذي يرفعه اليوم الإبداع الأصيل. والتواصل : معناه التجديد. وهذه كلمة كافية للدلالة على أنه استمرار للقديم، لكن في ثوب آخر مناسب للزمان وفضاءاته المتطورة، ورحم الله أمين الخولي إذ قال : «أول التجديد قتل الماضي بحثا!» أما القطيعة، فليست بتجديد أبدا، وإنما هي انسلاخ عن الذات، وتنكر للهوية الحضارية، وارتماء حتمي في مستنقع التبعية المهزومة، وذلك هو حال الأدب المأجور!

التواصل الجمالي إذن هو وظيفة النص الإبداعي -نحن حضارة نص!- وتلك معركة تخوضها اليوم الأقلام المتحررة، والكلمات المتوضئة، والمواجيد المجنحة..

في هذا الركب الساري... من بين قوافل المحبين؛ يومض بالليل الساجي ديوان (عاشقة)... قنديل أخضر من قناديل المحبة... تجربة قوية متوثبة، أرى أنها الآن ترسم -إلى جانب مجموعة من الطاقات الإبداعية- معالم مستقبل شعري متميز لمرحلة جديدة، وريادة أخرى لجيل جديد من شعراء هذا الوطن.

ديوان (عاشقة)، بالإضافة إلى ما ذكرناه مما يزخر به من ميزات فنية، يتدفق تجاهنا شلاله الثجاج، وهو يحمل عبقا من جداول شتى، تأخذ من أعشاب البر الشاردة هنا وهناك، ما يدل على غنى الإبداع الجمالي، وعمقه الوجداني لدى صاحبته! أصالة (كلاسيكية) تنقلك إلى العصر العباسي، والفضاء الأندلسي، أو بالأحرى تنقلهما إليك حتى لتكاد تلامس تلك الحياة، وتسمع ضوضاءها، وتعاين ركضها، من خلال النفس المتجدد في وجدان الشاعرة، الحامل لكثير من المقومات الفنية لشعر تلك العصور الأدبية المتميزة، كما هو الشأن في قصيدة (عاشقة) التي نالت علَمِيّة الديوان برمته! وقصيدة (يافع)، و(حديث الموؤودة)، وأضرابها من العموديات، التي تركب بحورا مختلفة، من بسيط، وكامل، ووافر، ورمل، ومتقارب، وخبب... إلخ. وإن كان (البسيط) هو سفينها المفضل، وحصانها الأغر، ولعل تنوع إيقاعه، وإمكاناته الغنائية ذات الأنغام المتعددة -وهذا معلوم لدى المنشدين للشعر العمودي- هو الذي يغري الشاعرة بتفجير طاقتها الإبداعية من خلاله! تقول في قصيدة (دعاء) مثلا :

واستنسر الطير بغْثانا وما انتفضت
للنسر قادمةٌ من بغي مضطهدِ
أدمته من أسهم العدوان وابلة
موتورة بلهيب الحقد والحرَدِ
وأصبحت أرضه سوقا وأعبدة
نساق فيها بشرع النار والزّرد

إن الشاعرة مغرمة بالشعر العربي الكلاسيكي إلى درجة التوحد والذوبان، والدليل على هذا أن ذلك الشعر (رجولي) الوجدان، لما يحمله من فخر وفروسية وغزل! وإنك لتحس أن الشاعرة وجدت فيه عزاء نفسيا عن الواقع العربي المتردي اليوم، وتعويضا عن الرجولة العربية المفتقدة، ومن هنا سكنتها القصيدة الكلاسيكية بما تحمله من فروسية ورجولة، ولولا أن توقيع الديوان باسمها (أمينة) لما علمت أنه صادر عن أنثى!!

تقول في قصيدة (المارد) :

يا مارد الفانوس هب لي ثانيهْ
أفضي إليك بقصتي وشجونيه
أنا شاعرٌ صاغ الإله فؤاده
من نسمة رفافة متناهيه

ومن التوقيعات الكلاسيكية الرائدة في هذا الديوان التوقيع الصوفي، بما يحمله من لغة إشارية، وصور وجودية، وخمريات رمزية.. إلى غير ذلك مما عرف في الشعر الصوفي لدى رابعة العدوية، وابن الفارض، وأضرابهما. وهذا النمط هو عمدة الديوان الذي تسمى بإحدى نماذجه، أي (عاشقة)، وفي ذلك تصنف قصائد أخرى نحو (عبودية)، و(كأس)، و(إبصار)، و(كمال)، و(حوراء)، و(يافع)، و(وقار)، و(سبحة شاعرة)...إلخ. كل ذلك بلغة إشراقية فياضة، تتهجد بين مقامات الفناء والبقاء. تقول مثلا في قصيدة (عاشقة) التي هي أم الديوان :

في حضرة العشق يسمو الروح منجذبا
بفيض نور تحدى القيد والطينا
يعلو ويفنى بذات الخير متحدا
كالعطر لابس ريحانا ونسرينا
إني أنا الشوق، أوصالي وإن فُنيت
أبقى بكاساته خمر المحبينا

حتى إنه يمكن تصنيف الديوان على الإجمال بأنه من الشعر الصوفي الحديث، وإن كانت فيه منازع أخرى لا تبعد من حيث (الرؤية) عن هذا التصنيف، ولا تخرمه! حتى إن (الإهداء) المصدر للديوان كان ابتداء كما يلي : «إلى ناشئة الليل التي هي (أشد وطءا وأقوم قيلا).. ثم ثني بعد ذلك بعبارة ذات بعد ذاتي وحضاري في الوقت نفسه : إلى الفارس الذي لم يزل يزرع الليل ضياء أملا في حصاد خالد، رفيق دربي..».

كما أن التراث الرومانسي في صورته (المهجرية) و(الشابية) حاضر في الديوان، لكن من خلال أدواته الفنية المجردة دون رؤيته الكئيبة الهروبية. وذلك نحو قصيدة (اشتعال) التي اشتغلت فيها الشاعرة بالرموز الطبيعية الجميلة بفنية نغمية تحيلنا على جبران وإليا أبي ماضي وأبي القاسم الشابي. تقول :

تقول الخميلة للساقية
إلام سيسهر هذا الفتى
ويروي حكاياه للنجمة الساجية؟
وكم ذا يؤرق عين الوجود
ويضني حمائمنا الباكية
ويسكب عشقه في سجعها
ويترع من دنه الدالية؟

وتمضي القصيدة بعد ذلك متفتقة عبر جداول من أنوار رومانسية هامسة وصاخبة!

بل إنك واجد في هذا الديوان نزعة (وجودية) لكن ليس بمعناها الفرنسي العبثي المتجلي عند (سارتر) و(كاميس)، ولكن بما يقارب معناها الإنجليزي المتجلي عند (راسل)، تلك النزعة التي عرفت عنده باسم (الوجودية المؤمنة)! وذلك يقارب ما يعرف في الفكر الصوفي الإسلامي (بمقام الحيرة)! ومن القصائد الممثلة لهذا الاتجاه عند شاعرتنا (أنشودة الحياة والموت)، و(هذان نحن : أنا وأنت) : القصيدة التأملية في وفاة أبيها -رحمه الله- وهي ليست من الرثائيات التقليدية، وإنما هي في الحقيقة تأملات فلسفية في معنى الحياة والموت، مستغلة بشكل طريف جدا تشابه الملامح بينها وبين والدها المرحوم! ولذلك كانت عندي من أروع قصائد الديوان! تقول :

هذان نحن : أنا وأنت
نطوى.. نسافر في الغروب
بين الشموس الراحلات
العائدات القانصات
بهاءها وشبابها من وجنتيك
ولن نعود مع الشروق ولا الغروب!
وأنا هنا، وهناك نحن : أنا وأنت!

وإنك بعد ذلك واجد في هذه التجربة الثرة شعرا سياسيا واقعيا يزيل عنك تخمة الشرود الفلسفي، وتعب السير بين منازل العشق الصوفي، ويندرج ضمنها : (القط المثنى في منصة الكونغريس) و(غزل على طريقة رعاة البقر) و(إصحاحات «نتن ياهو») -أعزكم ا لله!- و(اضطهاد) ثم قصيدة (شجب) الساخرة من الوضع العربي بعد ضرب أمريكا للسودان وأفغانستان يوم 1998/08/20م، وكذا أخريات غيرها. وأغلب ما كتب من هذا النمط هو شعر تفعيلي.

ولكن يبقى النفس الصوفي المتمثل في (الحب الإلهي) هو محور الديوان ومفتاح شخصيته، وكل الظواهر والأنماط الفنية والموضوعية تصدر منه وتعود إليه.

والشاعرة بعد ذلك حاضرة البديهة، غزيرة الإنتاج، لها قدرة عجيبة على الاستجابة للحدث، وللجواب معارضة على طريقة القدماء، تسندها في ذلك ثروة لغوية تكاد لا تنضب أبدا! ووعي تاريخي عميق بالفضاء الفني والسياسي للأمة العربية الإسلامية. وخير مثال لذلك قصيدتها العصماء (إن الخليقة بالإسلام عزتها) التي ردت بها على الشاعر الإماراتي حمد أبو شهاب الذي أرسل إليها -في إطار المراسلات الشعرية- بقصيدته (إن العروبة بالإسلام عزتها) التي كان مطلعها :

قبل الرسالة قل لي من هم العرب؟
وأيّ مجد بنت أمّ لهم وأب؟
تعال فاستقرئ التاريخ أمثلة
تر الحقائق فيما تحمل ا لكتب

فجاء الرد دفقة قوية نابعة من جرح يختزل الألم الثائر في الأعماق! فكانت القصيدة :

نكأت جرحا غفت من صمته الحقب
وما التذكر إن لم ينفع العَتَبُ؟
طِبُّ الشعوبِ بما التاريخ علمها
مواقفاَ يهتدي في ضوئها العَقِبُ

والقصيدتان بقدر ما فيهما من عبَق التاريخ السياسي والاجتماعي استلهاما ونقدا، بقدر ما فيهما من عبقه الفني والإبداعي استلهاما ونقدا أيضا! فهناك تواصل فني مع بائية أبي تمام الطائي. سواء من حيث الشكل العام عروضا وقافية، أو من حيث المضامين الحماسية الثائرة النقدية، رغم أن الرؤى قد تختلف بين نظرة الأول ونظرية الأخيرين في بعض المواقف الجزئية، أو فيما يتعلق بواقع العصرين المختلفين طبعا. ومن ههنا جاء نقد الشاعرين لمقولة أبي تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب!

فلو أخذ هذا البيت بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقول الأصوليون لكان كارثة تربوية على الأجيال وتكوين العقول، ولاشك أن شيئا من ذلك قد كان! ومن هنا قال الشاعر حمد أبو شهاب :

تعال فاستقرئ التاريخ أمثلة
تر الحقائق فيما تحمل الكتب!

ولكن أدق منه وأعمق قول الشاعرة في الرد :

وما الحجا إن سرى في غيه عَمِهٌ
ولم ير النور فيما ترشدهِ الكتب؟

إن هذا نقد حقيقي للرؤية العسكرية التي لا تعبأ بالتكوين ا لحضاري للإنسان اليوم، فأنتجت جيوشا عربية وقيادات عسكرية، عاجزة عن الدفاع والقتال! بسبب أننا نمتلك السلاح ولا نمتلك الإنسان الذي يحمله. وهذا لا يصنع إلا بالكتاب كما قالت الشاعرة، ولذلك كان تركيزها على أن العقل لا يستنير إلا به، فكانت أقرب إلى النقد لبنية الإشكال الحضاري منها إلى تقرير أهمية الوعي التاريخي بمعناه السطحي! وهذا من فوائد التواصل مع الشعر العربي القديم الذي يتيح لنا فرصة التعرف على العناصر الإيجابية في الأمة، وكذا العناصر السلبية فيها، التي يجب تجاوزها.

وختاما، أهنئ الأستاذة الشاعرة بما وهبها الله من تدفق شعري، ورصانة لغوية نادرة، وغنى فني جا مع، مما أشرنا إلى أقله، ولم يزل أكثره كامنا في صدفات هذا الديوان، مما يؤهله بحق إلى دراسات علمية متأنية، وجادة، ورصينة، عسى أن نتمكن نحن القراء من رؤية الخصائص الكلية الشاملة لهذه التجربة الفذة والمتفردة، والمتطلعة إلى مرحلة جديدة من الشعر المغربي. وإن غدا -إن شاء الله- لناظره قريب.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وصلى الله على محمد وآله وسلم.

وأنهى كتابته -بمكناسة الزيتون- بتاريخ : 18 جمادى الثانية من السنة الهجرية 1419، الموافق لـ1998/10/09م.